الباب الأول

الزوج.. والبيت

مُحَمَّد
الزوج النَّبِى
صَلى الله عليه وسلَّم

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣﴾

صدق الله العظيم
(سورة الإسراء)

البَيتُ وَالزوج

الحديث عن «نساء النبى» ﷺ فى بيته، لا بد أن يسبقه حديث عن الزوج، وبيته الذى أظلَّهن، لا أعنى به بنيانه وموضعه، بقدر ماأعنى الحياة المشتركة فيه. وأما البيت بمعنى البنيان؛ فالواقع أنه لم يكن بيتا واحدا، بل بيتين: أولهما فى «مكة» حيث عاش «محمد» ﷺ، مع زوجه الأولى وحدها، وحيث أنجب، وواجه التحول الأعظم فى حياته وفى حياة العرب والإنسانية جميعا. وقد وصفتُ هذا البيت فى كتابى عن «بنات النبى» ﷺ[1] وأما البيت الآخر فكان فى «المدينة» حيث عاشت أمهات المؤمنين جميعا غير السيدة خديجة رضى الله عنهن، فيجد القراء وصفه موجزا فى الفصل الخاص بالسيدة عائشة رضى الله عنها من هذا الكتاب، إذ كانت أولاهنَّ مكانا فيه، ومن بعدها جاءت نساء النبى ﷺ تباعا، وصار لزواجه ﷺ معنى اجتماعى وسياسى وتشريعى لم يُلحظ فى البيت الأول الذى دخله محمد ﷺ شابا فى الخامسة والعشرين من عمره، لم يُبعث بعدُ برسالة، ولم يتلق الوحى.

* * *

وفى الحديث عن رب هذا البيت الذى أظلهن، لا أقدم هنا تتبعا للسيرة النبوية أو عرضا لأمجادها الخالدة ومواقفها المشهودة، وإنما أقف

(١) ظهرت منه عدة طبعات لدار الهلال بالقاهرة. ثم دار الكتاب العربى فى بيروت. ويأخذ موضعه فى المجلد الجامع لـ (تراجم سيدات بيت النبوة) رضى الله عنهن.

من هذا كله عند جانب بعينه لاينبغى أن أتجاوزه إلى سواه، ذلك هو محمد ﷺ الزوج، النبى الإنسان الذى أظل بيته هؤلاء السيدات الكريمات، ووسعتهن دنياه الخاصة، وكان لهن حظ المشاركة فى حياته الوجدانية ثم فى حياته العملية.

والفصل بين شخصيته زوجا رجلا، وشخصيته ﷺ نبيا رسولا، جِدٌّ عسير، وليس الأمر كذلك فى حياة نبى آخر من حملة الرسالات رغم كونهم جميعًا آدميين، يقول الله تعالى فيهم: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم﴾[1]، ذلك لأن الإسلام قرر بشرية الرسل عليهم السلام أصلاً من أصول عقيدته. ومحمد ﷺ كان أحرص الناس على تذكير أمته بأنه بشر: عبدالله ورسوله.

ولم تنزع الرسالة من قلبه عواطف البشر، ولا جردته من وجدانهم، ولاعصمته مما يجوز عليهم فيما عدا ما يتصل بالنبوة؛ فهو كما قال جل جلاله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[2]: يسكن إلى زوجه، ويشغل بالأبناء ويعانى مثل الذى يعانيه بنو آدم من حب وكره، ورغبة وزهد، وخوف وأمل، وحنين واشتياق، ويجرى عليه ما جرى على سائر البشر من تعب ويتم وثكل، ومرض وموت:

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ [3].

---

(١) من آيات: يوسف ١٠٩، والنحل ٤٣، والأنبياء ٧.

(٢) سورة الكهف ١١٠ وفصلت آية ٦.

(٣) من آية ١٤٤ سورة آل عمران.

ولو شاء الله لعصم نبيه من كل هذا، ولأعفاه مما ذاق من حرِّ الثكل فى بنيه، وفداحة المصاب فى خديجة، ومحنة الإفك فى عائشة، ولجعل حياته نصرا متصلا لا يعرف هزيمة ولا يشفق من خيبة، وأراحه من اضطهاد أعدائه وكيد المنافقين من أتباعه، ولكن سبقت كلمة الله لرسوله:

قُل لَّآ أَمۡلِكُ
لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ
لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ
وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ (١).

وإنه لغاية التكريم للبشرية، أن ينتمى إليها النبى الرسول، ومن قبل كرمها الله تعالى فأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، أبى البشر.

* * *

ولكن محمدًا ﷺ، لم يكن مع ذلك كأحدٍ من البشر، وقد اصطفاه الله من بين المخلوقين جميعا، خاتما للنبيين، وبعثه فى الناس بشيرا ونذيرا.. إنه بشر رسول، وهذا هو موضع الدقة والعسر فى الحديث عن «الرجل» فى حياته العاطفية والزوجية، فما يغيب عن كاتب يعرض لهذا الجانب من شخصية محمد، أنه قد كان النبى المصطفى، وأن كلمة الإسلام الأولى هى الشهادة بأن لاإله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله.

ويزيد فى دقة الأمر وعسره، أن نرى الشخصيتين مندمجتين فيه غير

(١) آية ١٨٨ من سورة الأعراف.

منفصلتين، وأن الله سبحانه وتعالى لم يدع لرسوله حياته الخاصة يتصرف فيها كيف شاء على نحو ما يفعل أى رجل من البشر، وإنما كان - ﷺ - يتلقى من حين إلى حين أوامر ربه فى أخص الشئون الزوجية، وكانت علاقاته بنسائه تخضع أحيانا لتوجيه سماوى صريح:

فمحنة الإفك مثلا، لم يحسمها إلا نزول الوحى ببراءة السيدة «عائشة» رضى الله عنها مما افتراه عليها الذين أرجفوا بالسوء ورموها بالفاحشة.

وزواجه ﷺ من السيدة «زينب بنت جحش» ما كان ليتم لولا أن نزل به عتاب صريح من الله الذى كره لمحمد أن يخفى فى نفسه ما الله مبديه، وأن يخشى الناس والله أحق أن يخشاه.

وطلاق الرسول ﷺ لزوجه السيدة حفصة، خيف من وطأته على أبيها «عمر» رضى الله عنه، فنزل أمين الوحى على النبى ﷺ بأمر الله أن يراجع حفصة، رحمةً بعمر.

وضيق نساء النبى ﷺ، بما فرض عليهن من حياة خشنة، نزل فيه قوله تعالى فى سورة الأحزاب:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا
وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن
كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ
مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

وسلوك نسائه، ﷺ، كان يخضع لتبعات القدوة ومسئوليتها الباهظة الصعبة، قال تعالى فى سورة الأحزاب:

يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ
كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ
فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ
فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا
يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

وبعض هذا يكفى لبيان صعوبة الفصل بين شخصية الزوج وشخصية النبى ﷺ.

فأى رجل كان نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام؟

وأى زوج جمع بيته هذا العدد من عقائل كريمات، اختلفت أنماطهن، وتباعدت أصولهن ومنابتهن، وتفاوتت أعمارهن وصورهن؟..

قد نستطيع - بشىء من الجهد - أن نتبين بعض ملامحه المميزة، فى الشاب الهاشمى الذى صحب عميه أبا طالب، وحمزة، إلى دار السيدة خديجة بنت خويلد، ليحتفل بزواجه منها فى العام الخامس عشر قبل المبعث..

كان وقتئذ بشرا غير رسول، وإن يكن المهيأ ليبعث بالرسالة..

كان شابا قرشيا هاشميا عريق الأصل طيب المنبت؛ أبوه «عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم» الذى وعت «مكة» قصة افتدائه من النحر وفاء بنذر أبيه[١]، وهى قصة مثيرة أحيت ذكرى الذبيح الأول «إسماعيل ابن إبراهيم» جد العرب العدنانية.

وأمه «آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن قصى» أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا[٢].

وقد أمضى أعوامه الأولى فى بادية بنى سعد، فتركت هذه التربية البدوية طابعها الخاص فى شخصيته، وأكسبته صحة الجسم والنفس، وصلابة الخلق وفصاحة اللسان[٣] كما أكسبته حياته اليتيمة الكادحة من بعد ذلك، قوة احتمال وشعورا مبكرا بالمسئولية، وجاءت رحلة صباه مع عمه إلى الشام فوسعت من أفقه وَزَوَّدَتْه بَعضَ خبرةٍ بالدنيا والناس، فكان - فى إبان شبابه - الرجل الناضج الجلد الصبور، تلمح فى شخصيته آثار البادية، وفى سلوكه تهذيب الحياة المتحضرة حول الحرم: مثابة الحجّ، ومسكن قبيلةٍ تتولى النقل التجارى بين الأطراف

(١) السيرة النبوية، رواية ابن هشام ١٦٠/١، ط الحلبى وانظر مبحث الفداء بتفصيل، فى كتاب (أم النبى) ﷺ. مع طبقات ابن سعد ١٥٠/١، وأعلام النبوة فى (الشفا).

(٢) السيرة ١٦٥/١، عيون الأثر ٢٤/١. مع فصل (فصاحة لسانه) فى (الشفا) للقاضى عياض.

(٣) لم يفتنى هنا أن العرب عموما قد احتفظوا بسلامة ألسنتهم، قبل اختلاطهم بالشعوب بعد الفتوح الإسلامية، ولكن يبقى للبادية مع هذا، نقاء عربيتها نسبيا بالقياس إلى بيئة مكة التى عرفت الاختلاط قبل الإسلام، بحكم مركزها الدينى والتجارى: فإليها كان حج العرب، ومنها كان مَجازُ رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن والشام.

المتحضرة فى الجزيرة، كما تلمح فى عقله تجارب الحياة الجادة العاملة، وفى خلقه شمائل هاشمى قرشى، لم يفسده الفراغ والمال، ولم يُصِبْه الترفُ بآفات النعومة واللين.

هكذا كان «محمد» حين سمعت به السيدة خديجة، وبلغها ما يتحدث به القوم عن جده واستقامته، وصدقه وأمانته وعفته، فمهد هذا كله سبيله إلى قلبها الذى كانت قد أغلقته دون الرجال جميعا، وفكرت فيه قبل أن تلقاه وتراه بعينيها: «شابا وسيما، معرب الملامح، أزهر اللون، ربعة فى الرجال ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، ضخم الرأس، مبسوط الجبين، مرسل اللحية، عالى العنق، عريض الصدر، غليظ الكفين والقدمين، يتوج هامته شعر كث شديد السواد، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك، وتتألق أسنانه المفلجة البيضاء إذا تكلم أو ابتسم»[١].

«وكان يسرع الخطو ملقيا بجسمه إلى الأمام، ويحسن الإصغاء ملتفتا إلى محدثه بكل جسمه، لطيف المحضر، يضحك أحيانا حتى تبدو نواجذه فإذا غضب لم يخنه حلمه، بل ينفر عرق بين حاجبيه السابغين المتصلين، من أثر الغضب»[٢].

ولم تكن السيدة خديجة وقتئذٍ بالفتاة الغريرة، بل كانت السيدة الناضجة الحازمة، التى بلت الدنيا وعرفت الناس وتزوجت من قبل ذلك

---

(١) تاريخ الطبرى: ١٨٥/٣ - وانظر معه كتاب الفضائل من، صحيح مسلم: باب صفته ﷺ (١٨١٨/٤) وعيون الأثر ١٨٨/١.

(٢) من وصف الإمام على كرم الله وجهه للنبى عليه الصلاة والسلام: تاريخ الطبرى: ١٨٥/٣، ١٨٦ وانظر: صحيح مسلم، من كتاب فضائله ﷺ (١٨٠٤/٤-١٨١٢).

رجلين من سادة قريش، وعاملت رجالا آخرين كانوا يخرجون فى مالها إلى الشام، وإن فى إعجاب مثلها «بمحمد» وحرصها على الزواج منه لدليلا على أنها وجدت فى شخصيته الآسرة النبيلة، ما لم تجده فى أى رجل ممن تزاحموا على بابها يطلبون يدها. ولسنا بحاجة إلى أن نقرر هنا أنها لم تر فيه يومئذ سوى الرجل المثالى، لا النبى المنتظر.

وقد عاشرته هذه السيدة الناضجة الأصيلة خمسة عشر عاما قبل أن يبعث، وإنها لأعوام طويلة تكفى لأن تكشف لها عن جوهر هذا الزوج وتبدى من طبائعه وخصاله ما قد يخفى على غيرها من الناس. ثم لم تكد تسمع حديثه العجيب عن الوحى الأول حتى قالت فى يقين:

«كلا والله ما يخزيك الله أبدًا... إنك لَتَصِلُ الرحِمَ، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدومَ، وَتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1] الحديث.

تلك كانت شهادة الزوجة لزوجها بعد معاشرة طالت وامتدت، وإن فيها ما يجلو لنا ملامح من شخصيته ﷺ قبل أن يبعث نبيا رسولا. ومن وصف «على بن أبى طالب» كرم الله وجهه، لابن عمه الذى عاش معه طويلا فى بيت أبى طالب، ثم انتقل معه صبيا بعد أن غادر هذا البيت وتزوج السيدة خديجة، قال:

«... وهو أجود الناس كفا، وأجرأ الناس صدرا، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه...»[2].

(١) متفق عليه من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها، عن بدء الوحى. مع السيرة ٢٥٣/١؛ وعيون الأثر ٨٣/١.

(٢) وانظر كتاب المناقب فى صحيح البخارى، وكتاب الفضائل فى صحيح مسلم.

ومعه، حديث لأم معبد الخزاعية «عاتكة بنت خالد»، قالت تصفه ﷺ، وقد رأته فى هجرته قبل أن تعرفه:

«رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق.. وسيم قسيم، فى عينيه دعج، وفى أشفاره وطف، وفى عنقه سطع، وفى صوته صَحَل، وفى لحيته كثاثة، أزج أقرن، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحسنه وأجمله من قريب، حلو المنطق، فصل، لانزر ولاهذر.. ربعة، لابائن من طول ولا تقتحمه عين من قصر.. له رفقاء يحفون به، إن قال أنصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره...»[1].

والسيدة «خديجة» تنفرد من بين نساء النبى جميعا بأنها وحدها التى عرفته رجلا وزوجا قبل مبعثه ﷺ. ومن هنا كانت وقفتنا عند حياتها الزوجية نلتمس فيها شخصية الرجل الزوج، فإذا تركناها إلى الأزواج الأخريات اللواتى جئن بيت النبى بعدها، شق علينا تمثل حياتهن هناك، فما من امرأة منهن دخلت حياة «محمد ﷺ» إلا رأت فيه الزوج والنبى معا.

والذى نطمئن إليه، هو أن الزوجة منهن كانت تأتى بيت الرسول ﷺ، معتزة بشرف الزواج من النبى المصطفى، ثم ما تكاد تدخل هذا البيت وتلقى من فيه من ضرائر يشاركنها فى رجلها، حتى ترى فيه - ﷺ - الزوج والنبى. ومن هنا كانت المغاضبة والمنافسة، والغيرة التى

---

(١) الاستيعاب ١٩٥٩/٤، وعيون الأثر ١٨٨/١، ٣٢٣/٢. ومعها من الباب الثانى من (الشفا) للقاضى عياض، ٣٥/١ ط الحلبى ١٣٦٩هـ.

قد تحتد حتى تجاوز المدى، وما يكون شيء من هذا فى حياة نساء يرين فى زوجهن نبيا فحسب!

وحياة «محمد ﷺ» فى بيته، تبدو رائعة فى بشريتها، فقد كان يؤثر أن يعيش بين أزواجه رجلا ذا قلب وعاطفة ووجدان[1]، ولم يحاول - إلا فى حالات الضرورة القصوى - أن يفرض على نسائه شخصية النبى لا غير، ونحن اليوم نقرأ ما وعى التاريخ من مرويات عن تلك الحياة الزوجية، فيبهرنا ما فيها من حيوية فياضة لا تعرف العقم الوجدانى، ولا الجمود العاطفى، وما ذاك إلا لأنه ﷺ كان سَوِىَّ الفطرة، فأتاح بذلك لنسائه أن يملأن دنياه الخاصة حرارة وحيوية، وينحين عنها ظلال الركود والفتور والجفاف.

وتاريخ الإسلام يعترف لهؤلاء السيدات الكريمات، بأنهن كن دائما فى حياة المصطفى ﷺ يصحبنه حين يخرج فى مشاهده ومغازيه، ويهيئن له من ذلك كله ما يرضى بشريته، ويغذى قلبه، ويمتع وجدانه، ويجدد نشاطه، فكان له من ذلك ما أعانه على حمل العبء الثقيل، واحتمال ما لقى فى سبيل رسالته الخالدة.

وقد عاش رسول الله ﷺ ما عاش، فتىَّ القلب حتى بعد أن جاوز الستين، حى الوجدان حتى يوم رحل عن هذه الأرض وأغمض عينيه فى حجرِ أَحَبِّ نسائه إليه، وأحظاهن عنده.

* * *

(١) فى كتاب السمط الثمين للمحب الطبرى، مبحث مبسوط عن رعايته ﷺ لزوجاته، وسمره معهن، وصبره عليهن: ص ٨: ١١.

فى بيتِ الزوْجيَّة، معَ الضرائِر

بيته صلى الله عليه وسلم فى مكة المكرمة لم يعرف الضرائر، إذ انفردت به السيدة خديجة رضى الله عنها، لم يتزوج عليها ولم تشاركها فيه، حتى توفيت، امرأة أخرى. وإنما كان البيت الذى جمعهن، فى دار الهجرة.

ولابد هنا من تعرض للمسألتين الكبيرتين فى حياة النبى ﷺ مع نسائه: تعدد الزوجات، وحياة الضرائر...

وقد قال المستشرقون فى أولاهما ما قالوا، ولم يروا فى هذا الجمع بين عدد من النساء لزوج واحد، سوى مظهر مادية مسرفة. وإنه لضلال أملاه التعصب الأحمق والهوى المضل، وانحراف عن المنهج العلمى الذى يأبى أن نقيس مسألة تعدد الزوجات بمقاييس عصرية مستحدثة أضَرَّت بالمرأة والأسرة والمجتمع، من حيث يُدَّعَى لها أنها منصفة.

وهذا الغرب لا يجرؤ اليوم على أن يدعى أن نظام الزوجة الواحدة، يُتَّبع وينفذ نصا وروحا، ومع هذا يأتى بعض أبنائه فينكرون فى جرأة، تعدد الزوجات، فى بيئة قد كان التعدد هو نظامها السائد التى لا تعرف سواه إلا فى حالات قليلة ولدواعٍ خاصة. ولم يكن هذا النظام اختياريا، وإنما قضت به طبيعة الزمان والمكان، فى مجتمعٍ البنون فيه زينة الحياة، وفخر المرأة الإنجاب، وفخر الرجال الولد وعزة النفر.

وربما بدا لنا اليوم أن ذلك التعدد كان مظهرا من مظاهر استعباد المرأة العربية ورقها المزعوم، وأنه قصد إلى إرضاء الرجال، ولكنه فى الحق كثيرا ما ألقى على الرجل عبئا ثقيلا مرهقا، وأنقذ المرأة العربية من نظام أبشع من التعدد، وهو هذا الرق العصرى الذى يعترف لزوجة واحدة بشرعية الزواج، ويدع لغيرها - ممن يعاشرهن الزوج فى الحرام - الضياع والهوان والعار، ويرهق الإنسانية بمورد لاينقطع من أولاد الحرام، المنبوذين اللقطاء.

والإسلام قيد التعدد شرعا بأربع. ففارق الصحابة من زدن على أربع من نسائهم، ولهن أن يتزوجن من بعدهم.

وأكرم الله تعالى أمهات المؤمنين فأحلّهن للنبى عليه الصلاة والسلام. قال عز وجل فى سورة الأحزاب:

ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ

ذلك مع ما حرم الله على المؤمنين، من الزواج من أمهاتهم، نساء النبى ﷺ:

وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

وأمر الله تعالى الرجال بالعدل بين أزواجهم، فيما هو من المعروف والمستطاع. مع تقدير الشرع لعجز الفطرة البشرية عن العدل المطلق

ولو حرصنا. وقد كان ﷺ أحرص الناس على العدل بين نسائه، قدوة للمسلمين ومعلما وإماما، إلا فيما لم يكن تملكه بشريته من المساواة بينهن فى العاطفة والقلب، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

«اللهم هذا قسَمى فيما أملك، فلا تلُمنى فيما لا أملك».

وفى مسألة التعدد، جانب دقيق غفل عنه كثير ممن أنكروه، ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء، وقد تؤثر أنثى - راضية - أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل، على أن يكون لها غيره كاملا.

وليس معنى هذا أن نساء النبى كن سعيدات بحياة الضرائر، ولا هو يقتضى أن تستريح إحداهن، إلى هذه المشاركة فى الزوج، ولكن معناه على التحديد أن «محمدًا» ﷺ، كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال، تؤثر الزوجة أن يكون لها أى مكان فى بيته، على أن تكون لها مع غيره، مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة...

وليس من بين أزواجه - ﷺ - من دخلت بيته وفى حسابها أن تنفرد به، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية إلى حد يسهل عليها تصوره، لو ذكرنا أن «خولة بنت حكيم» اقترحت عليه أن يخطب عائشة بنت أبى بكر وسودة بنت زمعة فى وقت واحد، وأن «أم المؤمنين، ميمونة بنت الحارث» طمحت إلى الزواج منه، ﷺ وفى بيته عشر نساء: ثمانى أزواج واثنتان ملك يمينه، وأن عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على أبى بكر وعنده «أم رومان» حماة النبى ﷺ، وأن على بن أبى طالب همَّ بأن يتزوج على «فاطمة الزهراء» وأن أبا بكر وعمر، صهرى النبى ﷺ رغبا فى الزواج من «أم سلمة المخزومية، بنت أبى أمية زاد الركب» حين

مات زوجها، وفى بيت كل منهما أكثر من زوجة[١]...

ولو خُيرت نساء النبى ﷺ بين حياتهن تلك المشتركة فى بيت واحد، مع زوج واحد، وحياة أخرى منفردة فى غير ذلك البيت، لما رضين عن حياتهن بديلا...

فى صحيح الحديث عن أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبى سفيان رضى الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، هل لك فى بنت أبى سفيان؟ - أختها - قال: «فأفعل ماذا؟» قلت: تنكح. قال: «أتحبين؟» قلت: لستُ لك بمخلية، وأَحَبُّ من شاركنى فيكَ أختى. قال: «إنها لاتحل لى» قلت: بلغنى أنك تخطب. قال: «ابنة أم سلمة؟» قلت: نعم. قال: «لو لم تكن ربيبتى ما حَلّتْ لى، أرضعتْنى وأباها ثُوَيبة، فلا تَعْرِضْنَ علىَّ بناتكن وأخواتكن».

وكنّ مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة، تضنيهن الغيرة ويغيظهن ألّا تنفرد كل منهن بقلب زوجها. وقد شهد البيت المحمدى من غيرة نسائه، ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لشواغل نسوية لا تهدأ ولا تُفتر، وإن لم تر فيه الفطرة سوى أثرٍ لحيوية هؤلاء السيدات، ومظهرٍ من مظاهر التنافس فى حب زوجهن والرغبة فى الاستئثار به...

فإن يكن، ﷺ عانى من ذلك كثيرا، فقد راض نفسه على احتماله، تقديرا للدوافع الطبيعية التى كانت تدفع إليه قسرا ودون اختيار، وحسبُنا كلمته فى زوجه السيدة «عائشة» حين لجت بها غيرتها الجامحة:

---

(١) يأتى بيان ذلك، مع مراجعه، فى مواضعه من مباحث الكتاب.

«ويحها، لو استطاعت ما فعلت!»

شاهدًا على سلامة الفطرة، وعمق الفهم لطبيعة حواء. وقد كانت نساؤه يعرفن هذا فيه، ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يجب لهن من مسالمة ووئام، ويدركن أن الغيرة مهما تجمح بهن، فمثل رسول الله من يعذر، ويقدر، ويرحم، دون أن يرى فى ضعف البشرية إثما لايغتفر، أو يجد فى فطرة حواء ما يدعو إلى الغض والازدراء.

وسيأتى فى مبحث «السيدة حفصة بنت عمر» رضى الله عنها، حديث أبيها حين سمع من امرأته أن نساء النبى ﷺ، يراجعنه حتى يظل يومه غضبان...

ذلك أن عمر والصحابة رضى الله عنهم، كانوا يرون فى «محمد» النبى المصطفى، وأما نساؤه فكن يرين فيه الزوج أيضا. وهو ﷺ، راضٍ بهذا مقر له، غير ضجرٍ به ولا كاره...

* * *

ومن الناس من يشفقون من تناول ما كان يحدث بين نساء النبى ﷺ من خصام وخلاف، والحق أنه ﷺ ما ضاق بهذا إلا أن يجاوزن المدى، فيغضب، أو يزجر، أو يهجر، لعلهن يرعوين..

وفيما عدا تلك الحالات القليلة التى اضطر فيها إلى أخذهن بالشدة، لم يكره ﷺ أن يقف فى ساعات فراغه من معركته الكبرى فى سبيل الدين الحق، ليرقب تلك المعركة الصغيرة بين نسائه، يشعلها حبهن له وغيرتهن عليه، ولعله كان مما يرضى الرجل فيه أن يغار مثلهن على مثله، وأن تتنافس أزواجه فى الظفر بحبه ورضاه إلى حد ينسين معه أحيانا

أنه ليس كغيره من الأزواج. وما حاول -ﷺ- أن يروضهن على قهر غريزة الأنثى فيهن، ولا كان بحيث يطيب له أن تمسخ فطرتهن فيبرأن من نوازع حواء وأهوائها، ويتجردن من الغيرة، والشوق، واللهفة، والرغبة فى الاستئثار بالزوج الحبيب، وما كان أحلمه ﷺ، وأرق وجدانه، وألطف مزاجه، حين سمع قصة ائتمار نسائه بعروس له غِرْنَ من جمالها، فأوصينها أن تستعيذ بالله حين يدخل عليها النبى ﷺ، استجلابا لمحبته ورضاه، ففعلت وسرحها ﷺ، قبل أن يدخل بها، وقال عن نسائه:

«إنهن صواحب يوسف، وإن كيدهن عظيم!»[1].

وهذه صورة من حياة أزواجه رضى الله عنهن، أرجو أن يرى فيها القارئ شخصية الزوج المصطفى الذى آمنت به نساؤه رسولا، وأعجبن به بطلا، وعاشرنه زوجا، وشاركن فى حياته قائدا مجاهدا...

* * *

(١) بتفصيل، فى الفصل الخاص بالسيدة عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها.